Memory and Its Impact on the Architectural and Social Structure of Cities

Samer Said*

(Received 11 / 3 / 2020. Accepted 2 / 6 / 2020)

□ ABSTRACT □

Cities are complex entities and constantly changing in which living is often conditional upon reminiscences that stimulate various emotions and sensations, unforgettable events make us long for a past or common memory in order to have the sense of belonging, perceptions and revivals of previous activities give a sense of coherence, consolidated vision and moving forward. Therefore, memory is the mental capacity through which events are stored, preserved and recalled, the architectural and urban structures work similarly to preserve human experiences through its connection with place and containment of individual and collective life events.

The concept of memory associated also with a group of social studies brought out in the twentieth century which investigate the interrelation between memory and mankind and its role in keeping the continuance of life and creating a mnemonic connection between the past and future, and it also explores the repercussion of this interrelation on their environment.

This is what the research will discuss in a form of trilogy centered on memory concept which combines different propositions starting with the viewpoint of several thinkers and sociologists that concerns about the concept of "collective memory" and its correlations and consequences on the built environment and human outcomes regarding architecture and cities, and then some architectural and urban planning theories developed in an influential ideological and social framework taking into account the concept of memory as an essential part of its content and considering the significance of the course of time and historical records in shaping cities and building upon its former findings, ending with practical experiments and applications of architectural designs dealing with the concept of memory explaining the methods and reasons of its transformation from normal structures to "memory carriers" and the impact of memory on the origination of these structures. The conclusion of the research clarifies the frameworks of the relationship between human and the city in the context of memory which is substantial to study when dealing with any architectural or urban situation.

Keywords: Memory – Collective memory – Sites of memory – Archaeology of memory – Memory carrier

* **Master –Department of Architectural Design–Faculty of Architecture– Damascus University– Syria.**

الذاكرة وأثرها على البنية المعماريّة والاجتماعيّة للمدن

سامر سعيد*

(تاريخ الإيداع 11 / 3 / 2020. قُبِل للنشر في 2/ 6 / 2020)

□ ملخّص □

المدن كيانات مُركَّبة ومتغيّرة باستمرار، والحياة فيها غالباً ما تكون مشروطة بالذكريات التي تُحفِّز مشاعراً وأحاسيساً مختلفةً، أحداثاً لا يمكن نسيانها تجعلنا نتوق إلى ماضٍ وذاكرةٍ مشتركةٍ من أجل الشعور بالانتماء، تصوّراتٍ وإحياءً لنشاطاتٍ جرت سابقاً تعطي شعوراً بالتماسك والرؤية الموحَّدة والتطلّع للأمام. فالذاكرة هي القدرة الذهنيّة التي تُختَزن وتُحفَظ وتُسترَد الأحداث من خلالها، وبشكلٍ مشابه تعمل البنية المعماريّة والعمرانيّة على حفظ التجارب الإنسانيّة من خلال ارتباطها مع المكان واحتوائها لمجريات الحياة الفرديّة والجمعيّة.

ارتبط مفهوم الذاكرة أيضاً بمجموعة من الدراسات الاجتماعيّة التي ظهرت في القرن العشرين والتي تبحث العلاقة بين الذاكرة والجماعات البشريّة ودورها في الحفاظ على ديمومة الحياة وتأمين استمراريّة بين الماضي والمستقبل وخلق تواصل ذاكراتي، كما تبحث انعكاس ذلك على بيئتهم.

هذا ما سيناقشه البحث على شكل ثلاثيّة تتمحور حول مفهوم الذاكرة تجمع بين طروحات مختلفة ابتداءً بوجهة نظر بعض المفكّرين وعلماء الاجتماع التي تهتم بمفهوم "الذاكرة الجمعيّة" وارتباطاتها وانعكاسها على البيئة المبنية وعلى منتجات الإنسان فيما يتعلّق بالأبنية والمدن، ومن ثمّ بعض النظريّات والتوجّهات المعماريّة والتخطيطيّة التي ظهرت في إطار فكري واجتماعي أثّر عليها وأخذت مفهوم الذاكرة بعين الاعتبار كجزء أساسي من مضمونها معتبرةً السجل التاريخي والتواصل الزمني عنصراً هامّاً في تكوين المدن والبناء على ما سبق من موجودات فيها، وانتهاءً بتجارب وتطبيقات عمليّة لتصاميم ونماذج معماريّة تَختبِر التعامل مع مفهوم الذاكرة وطبيعة التأثير المتبادل بينهما موضِّحةً كيفيّة وسبب تحوّلها من بُنى اعتياديّة إلى "نقائل للذاكرة" وماذا تعني الذاكرة بالنسبة لها وكيف أثّرت على نشوئها، وصولاً إلى اختتام البحث بتوضيح أطر العلاقة بين الإنسان والمدينة في سياق الذاكرة والتي من الضروري دراستها عند تناول أي موضوع معماري أو عمراني.

الكلمات المفتاحيّة: الذاكرة – الذاكرة الجمعيّة – أماكن الذاكرة – أركيولوجيا الذاكرة – نقائل الذاكرة

* **ماجستير – قسم التصميم المعماري – كلية الهندسة المعمارية – جامعة دمشق – سورية.**

مقدّمة:

في كتابه "قلق الحضارة Civilization and Its Discontents" عام 1930، يناقش "سيغموند فرويد Sigmund Freud"[1] الشبه بين المدينة ومفهوم الذاكرة والعقل مقارباً المدينة لمخطوطةٍ مُسجَّلٍ عليها مراحل سابقة من حياتها وحياة قاطنيها والأحداث التي مرّت عليهما، فهي تحتوي كجزء من وظيفتها مجريات الحياة الفرديّة والجماعيّة وذكرياتها وانعكاساتها على البنية المعماريّة والعمرانيّة وعلى سكّانها. [1]

إلّا أنّ عمليّة التذكّر تبدو في بعض الأحيان مجرّد مهارة ذهنيّة، ومعظم الأشخاص يظنّون أنّ الذاكرة مُخزَّنة في العقل فقط مُفترِضين أنّ قدرة الإنسان على التذكّر تكون جيدة بقدر جودة الدماغ وحسب، لكن الأمر يتعلّق كثيراً بجسم الإنسان والمباني التي يتعامل معها، والذاكرة هي نتاج لتجارب الجسم للفراغ الفيزيائي وتتعلّق جودتها بقدر جودة الأبنية. [2]

يُطلعنا هذا على أهمّيّة العلاقة بين البيئة المبنية وذاكرة الإنسان بتناقضاتها وأوجاعها وآمالها ومدى ارتباطها بالقيمة المكانيّة للثقافة المجتمعيّة وتعزيزها لمفهوم الانتماء ضمن سياق عمران المدن، فمن خلالها تظهر التجارب الإنسانيّة من حيث الوقت بين قطبي الماضي والمستقبل ويتبيّن واقع الإنسان الوجودي الناتج عن تراكم وتعدّد الأحداث والقيم وتفاعله مع الذاكرة التي أخذ مفهومها مناحٍ عديدة وتفسيرات متنوّعة فيما يتعلّق بعلاقته بالإنسان والمدينة، فولادة المكان هي ولادة حقيقيّة للذاكرة، ومع ذلك يبدأ تاريخه ويصبح له سجل يمكن الرجوع له بعد ذلك. [3]

يناقش البحث هذه العلاقة من خلال ثلاثيّة تتمحور حول مفهوم الذاكرة استناداً إلى عدّة مستويات وأساليب فكريّة وتطبيقيّة ظهرت بشكل متلاحق أو متزامن وذات أثر متبادل فيما بينها، ضمن كل مستوى يتم مناقشة فكرتين يتراوح في مجالهما مفهوم الذاكرة، هذه الثلاثيّة:

- الذاكرة من وجهة نظر مفكّرين وعلماء اجتماع.
- الذاكرة من وجهة نظر منظّرين معماريّين.
- الذاكرة من وجهة نظر معماريّين مصمّمين.

أهمّيّة البحث وأهدافه:

تأتي أهمّيّة البحث من الدور الذي تقدّمه الذاكرة في تأثيرها على حياة المدن واعتبارها جزءاً جوهريّاً من بنيتها اللامادّيّة التي تتجلى معانيها في تفاصيل أبنيتها وفضاءاتها، ومن ارتباط مفهومها الذي يجمع بين العقل والفكر والحواس ومن ناحية تفسيرها كعمليّة بيولوجيّة واجتماعيّة وجسديّة. كما أنّ الربط بين الذاكرة والحدث وتاريخ المكان يساهمون سويّة في خلق حالة من الانتماء تحمي من تفشّي النسيان أو حدوث أزمة ذاكرة وتعزّز الهويّة الخاصّة.

بينما يهدُف البحث إلى اختبار التأثيرات والعلاقة المتبادلة بين عدّة وجهات نظر ذات مرجعيّة علميّة مختلفة تتصدّى لمفهوم الذاكرة، ومعرفة كيف يؤثّر كل منها على البيئة المبنية والمجتمع، والتعرّف على تجارب مختلفة في هذا الصدد.

[1] **سيغموند فرويد Sigmund Freud (1856–1939): طبيب أعصاب نمساوي ومؤسّس "التحليل النفسي Psychoanalysis" ومطوّر لتقنيّاته التي تشكّل الأساس الذي تعتمد عليه معظم طرق علاج الأمراض النفسيّة واشتهر بنظريّات العقل واللاوعي.**

منهجيّة البحث

تمّ اعتماد المنهج الوصفي لمجموعة من الدراسات عن مفهوم الذاكرة على المستوى الاجتماعي وعلى مستوى النظريّات المعماريّة والعمرانيّة التي تسعى إلى فهم التمثيل الاجتماعي لمفهوم الذاكرة فيما يتعلّق بالمدن والبيئة المبنية والتي ظهرت جميعها في القرن العشرين وكان بينها تفاعل وتأثير متبادل.

يلي ذلك اعتماد المنهج التحليلي لنماذج معماريّة بهدف فهم كيفيّة تأثير الذاكرة على الأبنية بشكل مباشر وانعكاس ذلك على حياة المدن ومناقشة الخلفيّات الفكريّة المُتّبَعة للوصول إلى الأفكار التصميميّة المطروحة.

1- الذاكرة بين التاريخ والمنظومة الاجتماعيّة

تشير بعض الدراسات في علم الاجتماع إلى اختلاف التعاطي مع الماضي وأسلوب معالجته، فهناك نمطان: النمط التاريخي والنمط الذاكراتي، أو ما يمكن تسميته بـ"التاريخ" و"الذاكرة"، وبرأي "أستريد إرل Astrid Erll"[1] فإنّ فعل التذكّر هو تسجيل تفسيري للماضي وليس له الحدود التي أوجدها "التاريخ" ذلك أنّه يتمتّع باستقلاليّة تامّة ويتجاوز علم التاريخ مفهوميّاً ووظيفيّاً. ففعل التذكّر ظاهرة اجتماعيّة–ثقافيّة تلبّي احتياجات الفرد والجماعة في زمن الحاضر في علاقتهم مع ماضيهم، ولها وظائف ومهام مرتبطة بمصير وجود الإنسان كفرد وكجماعة أكثر من مجرّد الحرص على التوثيق التاريخي كما يصفه "موريس هالبفاكس Maurice Halbwachs"[2] الذي قام بدراسة الاختلاف بين التاريخ والذاكرة وأبرز سمات كلٍ منهما ممّا ساعده في إيجاد منطلق مناسب لشرح نظريّته "الذاكرة الجمعيّة Collective Memory"، [4] فهو يَعتبر التاريخ إطاراً مُعقلَناً يدوّن التغيّرات طويلة الأمد، وهو الماضي المُتَذكَّر الذي لم تعد لنا علاقة "عضويّة" به، بينما الذاكرة، بحالتها الجمعيّة، هي الماضي النشط الذي يشكّل هويّتنا، لذلك فإنّ التاريخ والذاكرة الجمعيّة حقائق اجتماعيّة متاحة للعامّة، الأولى –التاريخ– ميّتة والثانية –الذاكرة الجمعيّة– حيّة. أمّا "بيير نورا Pierre Nora"[3] يرى أنّ الذاكرة هي ظاهرة فعليّة مستمرّة تربطنا بالحاضر الأبدي وهي الحياة التي تبقى في تطوّر دائم مفتوح أمام جدليّة التذكّر والنسيان، في حين أنّ التاريخ هو تمثيل للماضي. [5][6]

1-1- الذاكرة الجمعيّة وأماكن الذاكرة

يؤكّد "هالبفاكس Halbwachs" فيما يتعلّق بآليّة حدوث عمليّة التذكّر أنّها تتم في الحاضر، لحظة تذكّر الماضي هي دائماً في زمن الحاضر، بمعنى أنّ التذكّر هو عمليّة إعادة بناء الماضي بمساعدة الحاضر، والمفاهيم التي ينتجها الناس فيما سبق من حياتهم تتشكّل وتُصاغ بالضرورة من خلال مشاركاتهم في مختلف السياقات الاجتماعيّة والحالة التي يسلكوها في هذه الشأن، وأنّ الأشخاص كأفراد مجموعة هم من يقومون بفعل التذكّر، وبالتالي تكون الذاكرة الشخصيّة ملازمة للذاكرة الجمعيّة والعلاقة بينهما متبادلة. والتذكّر الفردي أو الجمعي يستحضر أحداثاً ووقائع ماضية بانتقائيّة محضة وعبر هذه الانتقائيّة المقصودة يُلبّي التذكّر احتياجات الفرد المتذكِّر أو الجماعة ورغباتهما، فالذاكرة هي

---

[1] **أستريد إرل Astrid Erll (1972–): أستاذة جامعيّة في الآداب والثقافات الناطقة باللغة الانكليزيّة في ألمانيا. لها مجموعة من المؤلّفات عن الذاكرة والثقافة.**

[2] **موريس هالبفاكس Maurice Halbwach (1877–1945): فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي ساهم بتطوير مفهوم "الذاكرة الجمعيّة Collective Memory" ودرّس التربية وعلم الاجتماع والفلسفة في العديد من مدارس وجامعات أوروبّيّة، وله العديد من الكتب والمؤلفات. (يُلفظ الاسم أحياناً "هالبواكس").**

[3] **بيير نورا Pierre Nora (1931–): مؤرّخ فرنسي معروف بأعماله عن الهويّة والذاكرة وله سلسلة من الكتب عن الذاكرة الفرنسيّة ومؤلّفات أخرى.**

نمط مستقل بذاته من أنماط الارتباط بالماضي تختلف تماماً عن التأريخ الذي يقوم بتسجيل أحداث الماضي وتقديمها بنفس الدرجة من الأهمّيّة. [7][8]

كيفيّة تفعيل هذه الذاكرة لها عدّة تفسيرات فكريّة، سواءً في معالجة التجارب السابقة من الماضي أو بطريقة التعبير عنها، حيث بقيت الدراسات لفترة طويلة تفسّر عمليّة التذكّر بكونها عمليّة بيولوجيّة فقط، إلّا أنّ "هالبفاكس Halbwachs" دحض المعلومات السائدة وقتذاك في كتابه "الإطارات الاجتماعيّة للذاكرة Les Cadres Sociaux de la Mémoire" عام 1925 موضّحاً أنّ الذاكرة ليست متمركزة ومنحصرة داخل الفرد بل تمتلك مكاناً لها ضمن المنظومة الاجتماعيّة كنتيجة مباشرة لتفاعل الفرد مع محيطه الاجتماعي الذي ينتمي إليه. ثم يتابع في كتابه "الذاكرة الجمعيّة La Mémoire Collective" الصادر عام 1950 بعد وفاته أنّ فعل التذكّر يضمن استمراريّة التجارب الماضية ودوامها في الحاضر والمستقبل وتأسيس هويّة مع الحفاظ على ضمان سيرورتها، ويزيد على ذلك أنّ فعل التذكّر ليس عمليّة فرديّة فحسب، بل هو حدث جمعي على مستوى الأسرة أو المجتمع أو أيّة جماعة بشريّة ويحتاج أن ينشأ ضمن إطار اجتماعي معيّن لضمان استمراره. إلّا أنّ "هالبفاكس Halbwach" بالرغم من تنبّهه للعلاقة المصيريّة بين الذاكرة والهويّة داخل المنظومة الاجتماعيّة، لم يهتم كثيراً بتفاصيل دور الذاكرة في تأسيس فعلي للهويّة وضمان بقائها وهذا ما قام به "بيير نورا Pierre Nora" في سلسة كتبه "أماكن الذاكرة Les Lieux de Mémoire" التي نُشِرَت في تسعينيّات القرن العشرين مُشيراً إلى أهمّيّة علاقة الذاكرة الجمعيّة بالهويّة ومساهمتها في تعزيز الانتماء وإحداث صلات وثيقة بين جغرافيا المكان والعمارة والمواضيع الثقافيّة والاجتماعيّة المرتبطة بالمجتمع أو الوطن، في حين أنّ التخلّي عن الذاكرة وإهمال مفهوم "أماكن الذكرة" في المجتمع، التي يرى فيها الضامن الوحيد لاستمراريّة الارتباط الجمعي بالماضي المحلّي ولتأسيس هويّة مشتركة اجتماعيّة، يفسح المجال أمام تفشّي "النسيان الجمعي" الذي يؤدّي بدوره إلى إضعاف الهويّة وزوالها. [9]

1-2- أبعاد الذاكرة بين هالبفاكس ونورا

يطرح "نورا Nora" ثلاثة أبعاد لـ"أماكن الذاكرة" يجب تحقّقها مجتمعةً لإضفاء صبغة الذاكرة على المفاهيم المجرّدة أو الحسّيّة، وهي **البعد المادّي** الذي يتجلّى بالأشياء ذات الأثر الملموس في الحياة كالأماكن والكتب واللوحات والأحداث التاريخيّة البارزة التي تملك **بعداً وظيفيّاً** يتمثّل بالقدرة على تحقيق وظيفة محدّدة ومضبوطة ضمن المنظومة الاجتماعيّة واعتبارها مرجعاً أو نقطة تحوّل في تاريخ أو ثقافة المجتمع ويكون لها **بعداً رمزيّاً** كبعض الممارسات والطقوس التي تُعرَف بخصوصيّتها ورمزيّتها، كما يوجد شرطٌ إضافيٌّ يُلحَق بالبعد الرمزي وهو النيّة والرغبة بالتذكّر وهو العامل الفاصل لتحويل أي شيء ثقافي إلى "مكان للذاكرة" وتمييزه عن الأهداف الثقافيّة الأخرى، والتخلّي عن هذا المعيار سيؤدّي إلى الاعتراف تقريباً بكل شيء جدير بالذكر كـ"مكانٍ للذاكرة".

أمّا نظريّة "الذاكرة الجمعيّة" التي طرحها "هالبفاكس Halbwachs" ترتكز على ثلاثة أبعاد اجتماعيّة مختلفة عن الأبعاد التي طرحها "نورا Nora" من ناحية تمثيلها إلّا أنّ مضمونها متقارب كآليّة عمل وتوضّح أهمّيّة الحالة التشاركيّة في المجتمع لبناء ذاكرة أكثر متانة ورسوخاً، هذه الأبعاد هي اعتماد الذاكرة الفرديّة على الأطر الاجتماعيّة وأن تكون ذاكرة متعدّدة الأجيال وتحقّق انتقال المعرفة الثقافيّة. [10]

1-3- أثر الطرح الاجتماعي لمفهوم الذاكرة على المدن

يتبيّن ممّا سبق أنّ الرؤية التي قدّمها "نورا Nora" عن دور "أماكن الذاكرة" باعتبارها المقابل الحسّي للذاكرة الجمعيّة واسعة من ناحية كيفيّة تحديدها لأماكن الذاكرة عن غيرها من الأماكن وشموليّتها لأي مفهوم مادّي أو مجرّد، وبالرغم

من تحديد "نورا Nora" لثلاثة أبعاد أو شروط لتحقيق صفة "أماكن الذاكرة"، فإنّه من الممكن أن تجعل من أي شيء ثقافي مجتمعي مرتبط بالماضي والهويّة "مكاناً للذاكرة"، أماكن جغرافيّة وأبنية ونُصُباً وأعمالاً فنيّة وشخصيّات تاريخيّة وكتباً وأيّاماً وأحداثاً تذكاريّة، كما أنّه استطاع تحويل مفهوم الذاكرة من أمرٍ مجرّدٍ إلى أمرٍ محسوس على عكس "هالبفاكس Halbwachs" التي كانت طروحاته تنظيريّة مرتبطة بالمنظومة الاجتماعيّة أكثر من ارتباطها بعناصر ماديّة. [11]

تُظهِر هذه الطروحات والنظريّات الفكريّة والاجتماعيّة أنّ الذاكرة تتلخّص بالتجربة المُعاشَة التي تعمل البيئة المبنية على احتوائها واستيعاب تراث الذاكرة الجمعي المنصهر والمتمازج مع النشاط الاجتماعي كتمثيلٍ مادّي ورمزيٍّ لها، وهذا ما أعطى هذه الأفكار صدىً في وسط المعماريين وخاصّة فيما يتعلّق بتخطيط وتنظيم المدن والذي ظهر جليّاً في القرن العشرين، وأصبح التطرّق لموضوع الذاكرة، بدرجات متفاوتة، أمراً مألوفاً وعنصراً جوهريّاً لبعض المؤلَّفات والتوجّهات التي ذاع صيتها وانتشرت محاولةً الاستفادة منها ومعرفة مدى تأثيرها وفاعليّتها على البنية المعماريّة والعمرانيّة.

2- الذاكرة بين الاستنساخ والأصالة

ظهرت في النصف الأوّل من القرن العشرين وفي ذروة عمارة الحداثة طروحات وأفكار معماريّة وعمرانيّة ذات طبيعة جديدة منفصلة نوعاً ما عن مفردات الماضي بدافع إبراز قدراتٍ جديدة تتّجه نحو المستقبل ومواكبة التقنيّات المعاصرة آنذاك، ثم برزت ردّة فعل مخالفة لما سبق سَعَت إلى تطوير المدينة من دون إلغاء دورها التاريخي وطالب البعض ليس بضرورة عودة رومانسيّة يائسة إلى ماضٍ لم يعد موجوداً إلّا في الخيال، بل إلى خلق تجارب جديدة تتناسب مع واقع المدينة التاريخي وبالتالي تؤمّن استمراريّتها فتختلط فيه الحداثة مع التراث والواقع مع الذاكرة.[12]

بعد ذلك نَحَت المدن المعاصرة على مستوى العالم في بعض الأحيان لتحقيق فكرة "المدينة الكونيّة" التي افترضت ذاكرة "المكان العالمي"، إلّا أنّه في نهايات القرن العشرين تلاها ظهور بوادر العودة إلى ذاكرة "المكان المحلّي" مرّة أخرى من أجل تعزيز الذاكرة والهويّة المحلّيّة [13] بالتزامن مع بزوغ وتصاعد "مذهب الذاكرة" الذي تحوّل بشكل واضح إلى صناعة وأصبح الارتباط بالذاكرة "هاجساً ثقافيّاً هائلاً ووصِفَت الحالة بـ"ازدهار الذاكرة"، إلّا أنّ هذه الاهتمامات المُكثَّفة فُسِّرَت كإشارة لحدوث أزمة ذاكرة [14] وهذا ما أيّده أيضاً "نورا Nora" بقوله أنّ كثرة الحديث عن الذاكرة في عصرنا مردّه إلى غيابها المطلق. [15]

2-1- الاستمراريّة والتواصل في المدن

ومن الأفكار التي ناقشت ذاكرة المدن على سبيل المثال ما قدّمه "كولِن رو وفريد كوتر Colin Rowe and Fred Koetter"[1] في عام 1978 مقترحين المدينة كتركيبة أو Collage City يختلط فيها القديم والحديث، التاريخ والمستقبل مذكّرين بضرورة متابعة مسيرة الأسلاف مستفيدين ممّا قدّموه والبناء على ذلك لتحقيق التواصل والمتابعة الذي لا يمكن وجوده بدون ذاكرة. كما نادى "ألدو روسّي Aldo Rossi"[2] بعودة إلى تراث المدينة المتمحور حول فكرتيّ المكان والذاكرة في كتابه "عمارة المدينة L'Architettura della Citta" عام 1966 وإلى فهمٍ أعمق لأهمّيّة المدينة من أجل

[1] **كولِن رو Colin Rowe (1920-1999): مدرّس ومنظّر وناقد ومؤرّخ بريطاني-أميركي في مجال العمارة والتخطيط وذو تأثير فكري واسع في النصف الثاني من القرن العشرين. ساهم مع مجموعة من المفكّرين والممارسين بكتابة العديد من المنشورات.**

فريد كوتر Fred Koetter (1938-2017): مصممّ معماري وعمراني أميركي عمل في المجال النظري والتطبيقي، له مجموعة من الأعمال المنفّذة ومساهمات قليلة في مجال التأليف.

[2] **ألدو روسّي Aldo Rossi (1931-1997): معماري إيطالي من روّاد حركة ما بعد الحداثة Post-Modernism. له مجموعة من النظريّات المعماريّة والتخطيطيّة والأعمال المعماريّة والتصميميّة والفنّيّة.**

عمارة أكثر تناسقاً وتناغماً مع محيطها وتاريخها ومجتمعها وذلك بعدم النظر إليها على أنّها قطعٌ أثريّة ماديّة فحسب، بل تُمثِّل أيضاً تطلّعات الإنسان في الزمان والمكان. ومن خلال الآثار التي تتركها المدن يتحقّق مفهوم الاستمراريّة كتواصل لأنماط العمران في التاريخ وتبقى المدينة هي الواقع الذي يؤمّن استمراريّة حياة شعب ما، وهي العمق الفلسفي والكوني لهذا الشعب، وهي السجل الدائم والمفتوح للحياة الاجتماعيّة وإطار الوجود، وهي الذاكرة التي تُحفر فيها أحداث الأمس وتطلّعات الغد وتزيد من الارتباط مع المكان والناس وتساعد في تعزيز الهويّة والانتماء، بينما فقدان ذاكرة المدن ونسيجها العمراني والمعماري يساهم في تأزيم الهويّة، فالذاكرة تُبقي الحكاية التاريخيّة حيّة في أذهان الأجيال المتلاحقة وتُبنى على البقاء والاستمرار والتراكم. [16][17][18]

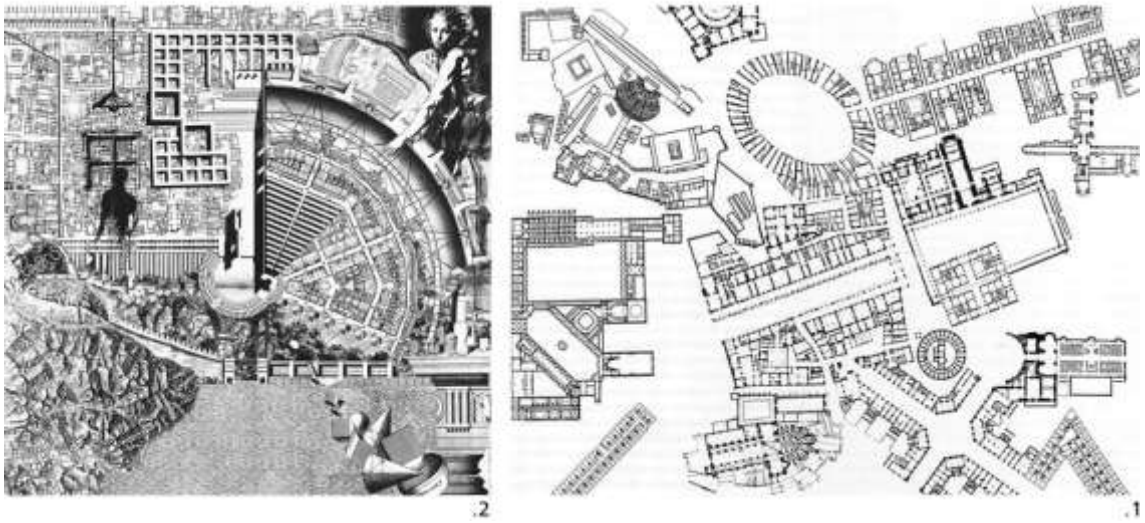

الشكل رقم (1): مدينة الوجود المركّب والمدينة المماثلة

1. "مدينة الوجود المركّب City of Composite Presence"، 1977 لـ"ديفيد غريفين وهانز كولهوف David Griffin & Hans Kolhoff"

استخدم "كولِن رو وفريد كوتر Colin Rowe and Fred Koetter" هذا الرسم كتعبير مجازي عن مضمون نظريّتهم "المدينة المركّبة Collage City" قاصدين به التنوّع والتراكم التاريخي وعدم اتباع أسلوب شمولي في التفكير والتعبير – المصدر: Rowe & Koetter, 1978 [19]

2. "المدينة المماثلة La Citta Analogà / Analogous City"، 1976 لـ"ألدو روسّي وإرالدو كونسولاتشيو وبرونو رايشلين وفابيو راينهارت Aldo Rossi, Eraldo Consolascio, Bruno Reichlin & Fabio Reinhart"

يُعبّر هذا الرسم عن مفهوم تشكيل المدينة كموضوع مركّب حيوي وغير جامد ككينونة تُعاش وتتعدّل بكل مكوّناتها بحيث تكون موضع الذاكرة الجمعيّة المبنية عبر فترات متعدّدة – المصدر: Ghirardo, 2019 [20]

يعود "روسّي Rossi" مرّة أخرى في كتابه "سيرة ذاتيّة علميّة A Scientific Autobiography" عام 1981 مستعرضاً وجود ترابط بين العمارة والذاكرة بحضور حالة من الخصوصيّة حيث تساهمان سويّة في تمييز الذات وتحقيق الأصالة، فالخصوصيّة هي التي تجعل من الظرف حالة فريدة، ولا يمكن لها أن تتواجد بدون ذاكرة، والذاكرة لا تتولّد من غير لحظات استثنائيّة ذات خصوصيّة وتفرّد، والتعامل معها لا يكون عن طريق "النسخ"، إنّما نوعيّة اللحظة الراهنة وسياق الذاكرة هو الذي يعطي التميّز الجديد رابطاً الماضي بالحاضر والمستقبل، لأنّه من المستحيل، حسب "روسّي Rossi"، إعادة صنع التاريخ أو نسخه كما كان لأنّ التغيّرات، وخاصّة الصغيرة، لا يمكن تجنّبها ولأنّه من

المؤسف أن يبقى الماضي غير قابلٍ للتغيير متجاهلاً خصوصيّة اللحظة وناكراً للتبدّلات التي تخلق الزمن الحاضر. [21] فالذاكرة المكانيّة تَخلق مشهداً جديداً وتُضيف بُعداً إلى السابقة فضلاً عن صلتها بالمشهد الأصلي الذي من الممكن أن يملك ارتباطاً مع الأحداث التاريخيّة حتى ولو تغيّر الشكل المادّي له، وهذا التراكم والنموّ لمفاهيم متعلّقة بها كطبقات الأركيولوجيا تعكس من خلالها تفاصيل البيئة المعماريّة والعمرانيّة والحياة يُعرَّف بمفهوم "أركيولوجيا الذاكرة" المرتبط بنموّ المدن والتراكم التاريخي للمجريات السابقة التي عاشتها. [22]

2-2- تأثّر المدن بالذاكرة

يتبيّن ممّا سبق أنّ الذاكرة شكلٌ من أشكال التمثيل الاجتماعي المكوَّنة من أجزاء المعلومات المُكتسَبة فرديّاً والتي تتم معالجتها كأفكارٍ مشتركةٍ من قِبل المجتمع وتصبح بعد ذلك عنصراً أساسيّاً في العمارة بدءاً من الإنشاء والوظيفة إلى شكل البناء ومن البناء وصولاً إلى المدينة وعناصرها التي ينبغي تفسير وجودها وفهمها على أنّها ملاحظة أو سجل لمراحل سابقة تحمل معلومات عنها ووثيقة وأداة تتجلّى وقائع الحياة من خلالها وتسمح بكشف وإظهار ثناياها، فهي تعمل كـ"نقائل" لأحداثٍ سابقةٍ [23] وتصبح مُنتِجاً ومُنتَجاً للمجتمعات وطريقة حياتهم ليس فقط من ناحية الإطار المادّي لوجودهم ولكن من ناحية التأثير في مجالات الثقافة الأدبيّة والتاريخيّة والمعماريّة والنظريّات والقصص الشخصيّة للأفراد الذين عايشوا هذه التفاصيل. ففي برلين مثلاً، أصبحت آثار الحرب العالميّة الثانية وبقايا هذه الحادثة نقطة تحوّل هامّة جدّاً في حياة المدينة وانعكس ذلك على تفاصيل منتجاتها ومنتجات أدبائها وفنّانيها وتمّ الاعتماد عليها كفكرة حاسمة في مرحلة وضع الرؤية الجديدة للمدينة. [24][25]

هذا التنوّع والتعدّد في ذاكرة المدن يؤمّن إطاراً مستمرّاً للحياة العمرانيّة فيها بما تحمله من قيم معرفيّة تمثّل المضمون الاجتماعي وتقيم مواقعَ راسخةً تلتقي بالماضي وتواجهه وتؤسّس لترابط بين تجارب الماضي والحاضر وتلعب دوراً هامّاً في خلق هويّة وفردانيّة متماسكة ومتتابعة ورابطاً معزَّزاً مع المكان الذي يتجسّد بتاريخ الإنسان ذاكرةً وحضارةً وجغرافيا. [26] ويُفسَّر الاختلاف بالرؤى والتغييرات المتتالية عبر الزمن وأسلوب التفاعل مع ذاكرة الإنسان والمكان بأنّ اعتماد المدن خياراً واحداً في رؤيتها يبقى حلّاً ناقصاً، فحين تميل المدن نحو الحداثة المطلقة يحدث انقطاع ويُفتَقَد عنصر التكامل والاستمراريّة، وحين تميل نحو الوفاء المطلق للتراث عبر تقليده يحدث توقّف وتُفتَقَد الحقيقة التاريخيّة، فتراث الذاكرة هو تراكم لاتجاهات وأفكار وتجارب منصهرة ومتمازجة مع النشاط الاجتماعي المرافق. [27]

3- الذاكرة بين التجربة الشخصيّة وأركيولوجيا المدينة

يملك الإطار الفيزيائي للمكان تأثيراً نفسيّاً وسلوكيّاً على الإنسان، وطبيعة مكوّناته تشكّل شخصيّة المكان وروحه، فالمكان له ذاكرة تبقى حيّةُ مستمدّة من قوّة الحضور المعماري والعمراني ضمن النسيج القائم بكل نشاطاته التي تجري وتتكرّر داخله لتصبح خاصّيّة من خصائصه وتشكّل على مرّ الزمان ذاكرة المكان التي تعطي المدن جوهراً وتجانساً وانتماءً [28] وتوليها مهمّة الحفاظ على الماضي وإتاحة الإمكانيّة لتجربة وفهم سلسلة متواصلة من ثقافتها وعاداتها، فالإنسان لا يتواجد فقط في الواقع المكاني والماديّ بل يعيش أيضاً الحقائق الثقافيّة والفكريّة والزمنيّة. [29]

لهذا التمازج المعماري والمكاني أنواعٌ مختلفةٌ فيما يتعلّق بالذاكرة، أحدها لا يستطيع تذكّر الماضي أو لمسه والآخر يثير شعوراً بالعمق والاستمراريّة، والذي يحفّز شعوراً ما منه ما يكون له قيمة معماريّة أو مؤثّراً في الحياة العامّة بحيث يحمل قيماً معنويّة أو يتكرّر بشكل دوري أو معاصراً لأحداث مرتبطة بذاكرة جمعيّة متجذّرة في الموقع، ومنه ما يكون ذو حضور خاص مُستحدّث دون مرجعيّة حدثيّة أو تاريخيّة، أي تخلق ذاكرتها الخاصّة مع الوقت أو تعمل على تحفيز الذاكرة الفرديّة، مثل أعمال "ألفار آلتو Alvar Aalto" و"كارلو سكاربا Carlo Scarpa" على سبيل المثال. [30]

هذا النوع من الاعتبارات التصميميّة يستحضر من الماضي وعياً أصليّاً غيرِ محدّدٍ وإحساساً متعدّد الطبقات من الوقت، قوّته العاطفيّة والترابطيّة تكمن في الاندماج الكامل للمكوّنات في كيان غير قابل للتجزئة، والبنى المدينيّة تعمل كأجهزة ذاكرة كبيرة بطرق مختلفة، فهي تحافظ على مسار الوقت وتجعله مرئيّاً ومحسوساً، وتُجسّد الذكريات من خلال احتوائها وإبرازها، وتُحفِّز وتُلهِم على التذكّر والتخيّل. [31]

بناءً على ذلك، تعمل البيئتان المبنية والاجتماعيّة كثنائيّة تتشابك مع الزمن وتترابط من خلال ظرفيّة محدّدة تجعلها مؤثّرة ضمن أطر متنوّعة وتصبح قادرة على إضفاء صفة "حامل للذاكرة" للمُنجز المعماري أو العمراني التي من الممكن لها أن تتواجد بأسلوبين:

- بُنى قائمة تصبح مع الوقت مُولِّدة لذاكرة مُستقاة من أو تحاكي فتراتٍ أو أحداثٍ ماضية فتكون ذات أثر على الذاكرة المستقبليّة وتحمل مُسبِّبات تحوّلها إلى ذاكرة وتمتاز بحضورٍ مادّيٍّ في البداية يولّد ذاكرة لاحقاً.
- بُنى مُستحدَثة مُحمَّلة بقيم ذاكراتيّة مجرّدة تُضاف إليها من البداية فتكون ذات تأثّر بذاكرة مُسبقة وتحمل نتائج وآثار لاحقة نتيجة تضمينها مفهوم الذاكرة وتمتاز بحضور ذاكرةٍ يولّد حضوراً مادّيّاً.

ستتم مناقشة مثالين معماريين منفذّان يتعاملان مع مفهوم الذاكرة اعتماداً على التصنيف السابق، أحدهما مؤثّر بالذاكرة بعد وجوده والآخر متأثّر بذاكرة قبل بنائه.

3-1- أمثلة معماريّة تختبر التعامل مع مفهوم الذاكرة

بالرغم من كثرة النماذج على مستوى العالم والتي حاكت بتصميمها مفهوم الذاكرة أو تأثّرت به فقد تمّ اختيار مشروعي "بيت بيروت" و"حديقة الحجارة" المتواجدين في مدينة بيروت كونهما محاولتان للتعامل مع تاريخ مديني واحد، ويناقشان تأثير الذاكرة على مدينة عانت من حرب لفترة طويلة وبقيت جزءاً مهمّاً من تاريخها ومؤثّراً أساسيّاً في كل تفاصيل الحياة، وسعياً للتعرّف على تأثير مبانٍ بوظائف مختلفة على التعامل مع مفهوم الذاكرة، ولفهم إمكانيّات التعامل مع منشآت تحمل مسؤوليّات اجتماعيّة وسياسيّة وتطرح منتجاً يعكس بعضاً من تفاصيل المدينة ويُظهِر أوجهاً مختلفةً للمجتمعات، ولفهم منهجيّة الأفكار التصميميّة فيما يتعلّق بسياق مديني ومجتمعي واحد وكيفيّة عرض هذه الحالة بشكلٍ معماريٍّ.

في كل حالة دراسيّة سيتم عرض معلومات عامّة عن اسم المصمّم والموقع وتاريخ تصميم وتنفيذ المشروع، ولمحة عامّة عن أسباب وحيثيّات نشوئه، علاقته بالمدينة والمجتمع وبمجريات مرّت عليه، وسيُقدَّم وصف عام له وشرح للفكرة التصميميّة.

3-1-1- الحالة الدراسيّة الأولى

اسم المشروع	بيت بيروت Beit Beirut
المصمم	يوسف حيدر Youssef Haidar
الموقع	بيروت، لبنان
عام التصميم	2009
فترة التنفيذ	2010-2017

لمحة عامّة وحيثيّات نشوء المشروع

مبنى بركات، البيت الأصفر، بيت بيروت، تعدّدت الأسماء والوظائف والأحداث التي مرّت عليه منذ تصميمه وبنائه من قِبَل المعماري "يوسف أفتيموس" عام 1924 كبناءٍ سكنيٍّ من طابقين ثمّ في عام 1932 تمّ إضافة طابقين آخرين

قام بتصميمهما المعماري "فؤاد قزح"، [32] ثم تحوّل مع بداية الحرب اللبنانيّة عام 1975 نتيجة لموقعه وتصميمه المنفتح إلى نقطة تمركز واشتباك مطلّة على خط التماس المُسمّى بـ"الخط الأخضر" الفاصل بين مناطق سيطرة المجموعات المتنازِعة مفرّقاً بيروت إلى طرفين شرقيّ وغربيّ.

بعد ذلك دخل مبنى بركات مرحلة جديدة وبقي عالقاً في الوقت لأكثر من عقدٍ من الزمن منذ انتهاء الحرب الأهليّة اللبنانيّة في عام 1990 حتى 2003 حيث قرّرت بلديّة بيروت ترميمه وإعادة توظيفه كملتقى ثقافي ومركز توثيق وأبحاث وأرشيف للمدينة، وذلك بعد ضغط وطلب مجموعة من المواطنين بضرورة الحفاظ عليه وإلغاء قرار الهدم الصادر بحقّه عام 1997 كي لا تزول الذاكرة ولا يغيب التاريخ ولا تُردَم قصص أهالي بيروت، مُضيفين بأنّه من الممكن أن يجمع شتات الماضي ويخلق ذاكرة جمعيّة واعتباره عاملاً موحِّداً سيساعد على المضي قدماً وتجاوز وإصلاح الانقسام الاجتماعي الحاصل بسبب الحرب ليصبح منصّةً للتبادل الثقافي والحوار المجتمعي ومتحفاً للذاكرة، ذاكرة لما قبل الحرب وخلالها وبعدها، يروي تاريخ المدينة ومستقبلها الآتي. [33]

.2 .1

الشكل رقم (2): مبنى بركات قبل الحرب وبعدها

1. مبنى بركات عام 1971 قبل تعرّضه للدمار – المصدر: غير معروف
2. مبنى بركات عام 1996 بعد تعرّضه للدمار – المصدر: غيورغي بينكاسوف / وكالة ماغنوم

[34] Gueorgui Pinkhassov / Magnum Photos

الفكرة التصميميّة

اعتمد المهندس المعماري "يوسف حيدر" عند تكليفه في عام 2009 بترميم وإعادة توظيف مبنى بركات مبدأ الحفاظ على ذاكرته وانعكاسات الأحداث التي مرّت عليه وعلى المدينة محاولاً تجنّب تجميل "جروح" البناء أثناء "معالجتها" ليكون جسداً مجروحاً مُذكِّراً بما حدث وشاهداً على وحافظاً لذاكرة بيروت العمرانيّة والاجتماعيّة بمراحل متعدّدة مُتّبعاً منهجاً تصميميّاً يشبه "التدخّل الجراحي" باعتبار المبنى كائناً حيّاً مع ندوبٍ ظاهرة وأجزاءَ مفقودةٍ منه من خلال الإبقاء على بنيته الأساسيّة وجميع الموجودات فيه من آثار الدمار الظاهرة على واجهة المبنى الخارجيّة إلى إبقاء طابقين على حالهما من الداخل وكيف كانا يُستخدَمان وقت الحرب بما فيهم من مقتنياتٍ لسكّان الشقق ومتاريسَ وكتاباتٍ على الجدران وجعلها جزءاً من بنية المركز ومعروضاته وشاهداً على أهوال الحرب السابقة، وأُخِذ بعين الاعتبار تعزيز

الهيكل الأصلي وتكييفه للاستخدام الجديد باستعمال عناصر اصطناعيّة تُضاف عند الحاجة الإنشائيّة أو الوظيفيّة فيعطي وجودها حياةً جديدةً ويُبرِز الغائب والمفقود، إضافةً إلى إنشاء توسّع جديد بجوار المبنى الأصلي ومرتبط به. بذلك تتم المحافظة على جزءٍ من ذاكرة المدينة، إن كان على صعيد ذاكرة الحرب أو ذاكرة الأشخاص الذين مرّوا على هذه المدينة وهذا المبنى. [35][36][37]

الشكل رقم (3): تفاصيل من "بيت بيروت" بعد الترميم توضّح التجاور بين المرمّم والجديد، العناصر المضافة الداعمة، الحفاظ على تفاصيل آثار الحرب والدمار على الواجهات وفي الفراغات الداخليّة – المصدر: يوسف حيدر [38]

العلاقة مع المدينة ومجرياتها السابقة

يحمل بيت بيروت أكثر من ذاكرة ، ذاكرة مبنى بركات الذي احتوى حياة عدّة أجيال وعائلات وأشخاص عاشت فيه، وذاكرة الأشخاص الذين تأثّروا بالأحداث التي كان محورها هذا البناء، سواء جرت فيه أو منه خلال فترة الحرب، والذاكرة الجمعيّة لأهالي المدينة لما يعبّر عنه ويمثّله من رمزيّة، وهناك ذاكرة سبعة وعشرين عاماً من التجاهل والمطالبات والنقاشات والتحضيرات والانتظار ليتحوّل مبنى بركات المهدّم إلى بيت بيروت المرمّم مع ملحقٍ جديدٍ بجواره ليكون نقطة انطلاق جديدة بذاكرته متعدّدة الطبقات إلى خلق ذاكرة جديدة بعد تحوّله لمتحفٍ ومركزٍ ثقافي.

ستةٌ وتسعون عاماً من الحياة والأحداث مرّت عليه بحكاياه وقصص ساكنيه، إلى فترة حرب بمآسيها وخلافاتها، إلى بناء متضرّر تحت خطر الهدم واستثمار موقعه وإهمال قيمته، وصولاً إلى طموحٍ مستقبليٍّ جامعٍ وموحّدٍ. فالعمل المعماري هنا وتعامله مع الذاكرة يحمل هدفاً مجتمعيّاً، ينقل التفكّكات الاجتماعيّة إلى توحّد وتقدّم ليكون رمزاً للتبادل الفكري الإنساني والحوار حول التاريخ والمدينة.

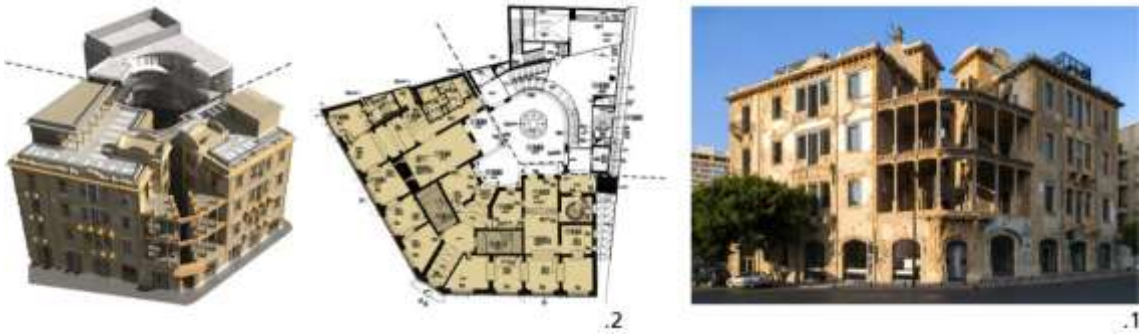

الشكل رقم (4): "بيت بيروت" بعد الترميم والتأهيل

1. الواجهة الخارجيّة لـ"بيت بيروت" بعد عمليّة الترميم – المصدر: يوسف حيدر [39]

2. مسقط ومنظور لـ"بيت بيروت" يوضّح مواقع الترميم والإضافة – اللون الأصفر: البناء المُرمّم، اللون الأبيض: البناء الجديد المُضاف – المصدر: بيت بيروت – متحف ومركز ثقافي مدني (الموقع الرسمي)، بتصرّف الباحث [40]

خصائص المشروع

يملك مبنى بركات خصائص أخرى تميّزه كعمل هندسي يرتبط بالزمن والذاكرة المعماريّة، حيث يُعتبر نموذجاً استثنائيّاً من هندسة عشرينيّات القرن العشرين بطرازه العثماني الجديد والمتأثّر بطراز أرت ديكو Art Deco قليل الانتشار في المنطقة واحتوائه على عناصر معماريّة متميّزة مثل الجسر الواصل بين جناحيّ البناء ذو الأعمدة المزخرفة والمفتوح تجاه السماء، كما أنّه نتاج عمل ثلاثة معماريّين شاركوا بتصميمه بفتراتٍ وظروفٍ مختلفة أدّت إلى تواجده بالشكل الحالي.

يُقدِّم مشروع بيت بيروت مثالاً للتعامل مع مقتنيات بيروت المعماريّة والعمرانيّة كذاكرة لها جذورها وتاريخها لا كسلعة تجارية استثماريّة في خدمة المضاربات العقاريّة، ويمثّل محاولة لرصد تحوّلات المدينة وتغيّراتها ومؤشّراً لضرورة الاهتمام بتراث المدينة وذاكرتها الجمعيّة، [41] ويُظهِر أنّ التعامل مع "جروح الماضي" وبقائها في الذاكرة يمكن أن يخلق مستقبلاً أفضل وأكثر تماسكاً بعيداً عن ماضي التفرقة ومُحذِّراً من تكراره ويعطي المدينة بعداً جديداً في حياتها ليبقيها حيّة مع بصماتٍ ممّا مرّت به.

3-1-2- الحالة الدراسيّة الثانية

اسم المشروع	حديقة الحجارة Stone Garden
المصمم	لينا غُطمة Lina Ghotmeh Architecture
الموقع	بيروت، لبنان
عام التصميم	2010
فترة التنفيذ	2017-2020

لمحة عامّة والفكرة التصميميّة

بناءٌ سكنيٌّ يقع في منطقةٍ تَجمَع بين مبانٍ من فتراتٍ مختلفة احتوت سابقاً فعاليّات صناعيّة وأوّل معمل اسمنت في الشرق الأوسط بالقرب من مركز المدينة وبجوار المرفأ منفتحاً بشكلٍ جزئي تجاه البحر. "حديقة الحجارة Stone Garden" هو أوّل مشروع للمعماريّة "لينا غُطمة Lina Ghotmeh" في مدينتها بيروت، يجمع بين تاريخ المدينة وذكرياتها كـ"منحوتة مأهولة" حسب وصفها، معتمدةً في تصميمه على منهجيّتها المسمّاة "أركيولوجيا المستقبل Archaeology of the Future" التي تعطي أبنيتها بصمةً تعبيريّةً واضحة مُتّحدةً بتوتّرٍ إنساني يسترعي الانتباه

غير الخطابي نحو موضوع الاستدامة وتهدُف إلى البحث عن بنية راسخة مستمدّة من الماضي في موقعها الخاص تستحضر الذكريات بعد إسقاطها على المستقبل، وبهذه الحالة تصبح العمارة استكشافاً وتبرز في سياقها بدلاً من فرضها عليه وتكون نتيجة هذه العمليّة هي "تجديد" وشكل مستقبلي "أصيل" يولّد شعوراً بالانتماء. [42]

تُعرِّف "غُطمة" العمارة بأنّها "حَفْرٌ في الماضي مُسْقَطٌ على المستقبل"، وهذا التعريف هو جوهر الفكرة التصميميّة لهذا المشروع. هذه الأفكار نابعة من تجربتها بالعيش في مدينة بيروت بعد أعقاب الحرب التي مرّت بها واصفةً بيروت بموقعٍ أثريٍّ يكشف مكنوناته ومستعدٌ لمرحلة إعادةِ بناءٍ مُظهراً كل تاريخه المدفون، وكل عمليّة بناء جديدة تستدعي بشكل لا مفرّ منه كشف فترات ماضية، فالعمارة مرتبطة بأرضها وما تخفيه من مكشوفٍ ومدفون. [43]

الشكل رقم (5): مبنى "حديقة الحجارة Stone Garden" وعلاقته مع محيطه العمراني والمديني

1. الواجهة الجنوبيّة المُطلّة على المدينة وفيها مساحات نوافذ صغيرة – المصدر: Joe Ladhou [44]
2. الواجهة الشماليّة المُطلّة على مرفأ المدينة التي تحتوي المساحات المزروعة – المصدر: Iwan Baan [45]
3. الواجهة الشماليّة المُطلّة على المرفأ في إطارها العمراني الكثيف – المصدر: Iwan Baan [46]

من ناحية أخرى، تُفسّر "غُطمة" مبدأ تصميم الواجهات بتأثّرها بذاكرة المدينة من ناحية المشهد الطبيعي الموجود فيها، فالتصميم جاء كنقدٍ لندرة العناصر الطبيعيّة داخل المدينة وانعكاساً لأنقاض بيروت التي اجتاحتها الطبيعة وذلك بجلب الحدائق والمساحات المزروعة إلى المستويات العليا للبناء لتنمو بشكلٍ عضوي ولطيف في مدينة "من البيتون"، كما أنّها تعيد استخدام بعض آثار ومفردات الحرب كرمز للحياة وتعيد تفسير وتأويل عناصرَ من المدينة كرسائل ضمنيّة غير مباشرة وتذكيرٍ دائمٍ بما عاشته بيروت. [47]

الشكل رقم (6): الواجهة الشماليّة مبيّنة الفكرة العامّة لتصميم الفتحات وعلاقتها مع العناصر النباتيّة – المصدر: Iwan Baan [48]

حيثيّات نشوء المشروع وعلاقته مع المدينة ومجرياتها السابقة

كوّن كلٌّ من الموقع والسياق والتاريخ والمجتمع عناصر أساسيّة في تطوير فكرة التصميم، إضافةً إلى تصوّرات المعماريّة "غُطمة" المتعلّقة بالمدينة وأسلوب فهمها لها محاولةً إعادة تفسير واجهات أبنية بيروت المُثَقّبة بسبب الرصاص في زمن الحرب إلى وجه جديد للمدينة من خلال فتحات تستضيف الحياة والطبيعة وترتبط بالمشهد العام المحيط لتغيير مفهوم المرء لما قد تعنيه آثار الدمار على الأبنية في سياق مدينة عايشت حرباً لفترة طويلة عن طريق تشويش الحدود بين ذاكرة الحدث العنيف وسعي عناصر البناء نحو المستقبل، مستمِدّةً ذلك من ذاكرتها التي عاشتها في المدينة في وقت محدّد وتأويلها هذه المفاهيم بطريقتها الخاصّة. [49]

خصائص المشروع

لم يقتصر التعامل مع الذاكرة في هذ البناء على مرحلة التصميم فقط، بل تعداه ليشمل مرحلة الإنشاء وآليّة تطبيقها إلى اختيار المواد وطرق تنفيذها بشكل يخلق ذاكرة للمستقبل ويعبّر عن الارتباط بين المادّة والموقع بتاريخه وسياقه.

مادّة البناء على الواجهة مُطوّرة بوسائل وتقنيّات محلّيّة، فهي محزّزة يدويّاً بشكل أفقي للتعبير عن تراكم الأزمان ولإضفاء سمة العمل الحرفي واليدوي وآثار بصمات العديد من العاملين الذين ساهموا في إشادته. [50] فالمعماريّة تسعى من خلال ذلك إلى تحميل البناء مفاهيمَ وفرصاً ليكون ذاكرة في مستقبله ورابطاً بين قاطنيه والمدينة ومن عَمِل فيه. فالتصميم بمجمله يستند على أساس فكري مرتبط بحيثيّات المشروع وأبعاده المدينيّة والتاريخيّة مُظهِراً الفكر المعماري الخاص بالمصمّمة الناتج عن حياة ومعرفة ورؤية وتجربة ذاتيّة، ويعتمد على جزئيّات تتعاون مع بعضها لخلق أثر عام يرتبط بالذاكرة ويخلق تصميماً متجذّراً في موقعه ويركّز على استخدام المفردات المعماريّة والتاريخيّة أكثر من التعامل مع سياقه العمراني الذي يمرّ بمرحلة من التغييرات التي تطرأ عليه من ناحية الاستخدام الوظيفي أو المقترحات لمنشآت جديدة.

يُجسّد مشروع "حديقة الحجارة Stone Garden" تاريخ بيروت المتناقض، فهو شكلٌ مبنيٌّ من الحياة والموت، من الحضور والغياب، من الزوال والخلود، من الجمال والقساوة، هو "أركيولوجيا شاقوليّة" لمستقبلٍ يجلبه الناس الذين سيقطنونه وسبرٌ واستكشافٌ لإمكانيّات العمارة من خلال علاقتها بالمدينة وتاريخها ومجتمعها ودعوةٌ لعدم تكرار تاريخ الحرب، بل للاعتزاز بالحياة والتماسك.

النتائج والمناقشة:

المشروعان المدروسان يقعان في مدينة واحدة، فالأحداث واحدة والتاريخ نفسه، إلّا أنّ كل مشروع يعكس تفاصيلَ مختلفةً عن الآخر ورؤىً تتعامل مع كل حالة بتفرّد وخصوصيّة ومعطيات غير متشابهة، وكلٌّ منهما يُظهِر سعيه الدائم لاستكشاف المدينة والتصالح معها من خلال العمارة وبأسلوب مختلف.

ولا يرتبط موضوع طرح الذاكرة معماريّاً وعمرانيّاً بصيغة محّددة من الوظائف، فيمكن لها أن تُؤخذ بعين الاعتبار في أيّ مشروع بغض النظر عن وظيفته، إلّا أنّ طريقة عرض المفهوم الذاكراتي يختلف بهذه الحالة وتتغيّر نسبته تبعاً لقدرة كل استخدام على استيعاب مفهوم الذاكرة وبأي طريقة يتعامل معها.

فالذاكرة غير أنّها مفهوم فكري واجتماعي وفيزيولوجي معقّد، فهي تتأثّر بالخلفيّة المعرفيّة والثقافيّة للمصمّم والتجارب المُعاشة، وتكون الإيديولوجيا التصميميّة نتاج ذاكرة شخصيّة انعكست على عقليّة المعماري وبدورها انعكست على الطريقة التي يتعامل فيها مع مجريات التصميم وكيفيّة فهمه وتفسيره للسياقات المتكاملة ليظهر العمل بشكله النهائي الذي يمكن أن يُقدَّم بأشكال مختلفة لذاكرة واحدة، هذا الاختلاف نابعٌ من قدرة الذاكرة على التعامل مع الأحداث بحيويّة واحتمالات متعدّدة نظراً لكثرة العوامل المؤثّرة فيها والمتداخلة معها، كما يمكن إبراز عوامل على حساب أخرى أو إسقاط جزء منها من التصميم.

4- العلاقة التكامليّة بين الإنسان والمدينة في سياق الذاكرة

العلاقة بين الإنسان والمدينة علاقة متداخلة تتجاوز ظاهرها الوظيفي والشكلي لتصبح جزءاً ثابتاً مؤثّراً ومتأثّراً بحياة القاطنين والمجتمع الأصلي، ذات دلالات ثقافيّة وفكريّة مرتبطة بما سبق ومؤسِّسةً لِما سيأتي ومولِّدةً لتآلف حيويّ ومتجدّد ناتج من أثر الماضي الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وذاكرته.

4-1- العلاقة في إطار الديناميكيّة

يُولِّد وجود الإنسان في فضاء الذاكرة علاقةً ديناميكيّةً مع الآخر ومع المدينة، متغيّرة حسب سياقها وتعمل على توليد مواقفَ إبداعيّة أصيلة ترتبط بالمكان ومخزونه المادّي واللامادّي، تتكثّف بصريّاً وحسّيّاً إضافةً إلى ماضٍ متكدّس، ماضٍ ليس كمفهوم زائلٍ ومنتهٍ بل كمفهومٍ تراكمي، ووجود الذاكرة وحضورها يتمثّل في نسيج المدينة كخازن لتراكمات محسوسَة ومُدرَكة، فكريّة وتاريخيّة، فتاريخيّة المدينة هي حاضرها أيضاً والمدينة تقوم بعرض الماضي وتقديمه في لحظة الحاضر بشكل يرتبط مع مجريات المدينة في تفاعلها مع مستخدميها وسكّانها وكل هذا يساهم في خلق الحدث والإضافة على المخزون المتجدّد.

4-2- العلاقة في إطار التحوّلات

تلعب الذاكرة دوراً هامّاً في استمراريّة المدينة، فهي لا ترتبط بشكل محدّد أو وظيفة معيّنة إنّما تتطوّر وتتأقلم مع الزمن، ولا تقتصر على أبنيةٍ أو صروحٍ بل تمتدّ لتشمل مناطقَ أو شوارعَ أو عناصرَ تجسّد ذاكرة مهمّة بالنسبة للمجتمع لا يمكن اختزالها أو تجاهلها لاحتوائها معانٍ ومفاهيمَ انبثقت من طرائق العيش والاجتماع الإنساني لا تفقد قيمتها بمرور الزمن، بل تتعزّز وتزداد غنىً مع الوقت نظراً لما تختزنه من قيم فكريّة ومادّيّة ارتبطت بها ارتباطاً وثيقاً ولمعايشتها تحوّلات اجتماعيّة وتاريخيّة تُغني المكان وتحافظ على استمراريّته ليبقى إطاراً يحوي وظائفاً وأزماناً مختلفة مشكّلةً تسلسلاً بين الماضي والحاضر وبين الاختلافات المدينيّة على مرّ الزمن بشكلٍ يُغني تفرّد كل حالة. [51]

4-3- العلاقة في إطار الزمان

مقارنةً بين رأي "هالبفاكس Halbwachs" بأنّ "التذكّر هو عمليّة إعادة بناء الماضي بمساعدة الحاضر" ورأي "روسّي Rossi" أنّ "الذاكرة ليست استنساخاً أو استرداداً لما مضى والمدينة موجودة بشكل مستمر عبر الزمن"، يمكن الاستنتاج أنّ للذاكرة خصوصيّة زمانيّة واضحة ومرتبطة جداً بسياق عملها، السياق الزماني والمكاني والاجتماعي، ويمكن مقاربة السياق الزماني لمفهوم الوقت الذي اقترحه "جيريمي تيل Jeremy Till" مُطلقاً عليه تسمية "الوقت المُكثَّف Thick Time"[1] قاصداً فيه الحاضر الذي يجمع الماضي ويمسك المستقبل المخصّب به، فهو وقت الحياة اليوميّة وتجارب الحياة الحقيقيّة، وهو ما يُجنِّب التكرار الخالص لأزمان ماضيّة أو الاحتفال الفوري بما هو أتٍ وجديد. [52]

الاستنتاجات والتوصيات:

تتّصف المشاريع التي تأخذ منحى الذاكرة كأساس للتصميم بخصوصيّتها الواضحة وارتباطها بطبيعة الحدث أو الذكرى، حيث من الممكن أن تكون لها مساهمة إيجابيّة وممكن أن تكون مساهمتها سلبيّة وخاصّةً في المشاريع التي تحمل ذكريات مرتبطة بالحروب أو الكوارث على سبيل المثال، فالمواضيع المرتبطة بالذاكرة تُعتبَر شائكة نظراً لحساسيّتها الشخصيّة والجمعيّة تبعاً للسياق المتكامل الموجودة فيه وإمكانيّة خلقها لردود فعل فعّالة أو هدّامة وعليها أن تُبحَث وتُدرَس ضمن مجموعة من الإطارات التالية:

1- الذاكرة حدثٌ جمعيٌّ والمنتَج المعماري أو العمراني يتأثّر بالمنظومة الاجتماعيّة التي تخلقه ويتولّد من جوهرها ليعود ويشارك كجزء من الذاكرة القادمة التي ستتولّد في المستقبل ويمكن أن يكون أحد "أماكن الذاكرة". يوضّح هذا ضرورة أن يكون الحدث الجمعي أصيلاً قيّماً ومرتبطاً بسياقه المكاني وبيئته الحاوية له، يستطيع أن يساهم في تكوين أو تعزيز مفهوم الهويّة وصلتها بالثقافة التاريخيّة والقوميّة وتحقيق الاستمراريّة من خلال مساهماته المدينيّة. هذا الارتباط بين السلوك المجتمعي والبيئة أساسٌ لتوضيح التأثير المتبادل بينهما فكريّاً واجتماعيّاً ومعماريّاً وعمرانيّاً.

2- العمل المعماري أو العمراني يأخذ نسبة لوجوده في المدينة دور الفرد ضمن الجماعة ويعمل كمرجعيّة لذاكرة جمعيّة مدينيّة ويساهم في حوار مع سياقه وصولاً لتحقيق ما سمّاه "هالبفاكس Halbwachs" بـ"الطابع الجمعي للتذكّر" إنّما على مستوى المدينة. فيمكن القول أنّ الذاكرة لا يمكن اقتصارها على بناء واحد بالمطلق، فعناصر المدينة تخلق حواراً فيما بينها عن طريق الاستخدام الإنساني وتعمل بشكل مشترك كعنصر مرجعي-جمعي لتأسيس أرضيّة لهويّة مشتركة ومتماسكة لتكون نقطة التقاء لنشوء ذاكرة مدينيّة جمعيّة.

3- المفهوم البنائي للذاكرة يبني تطلّعات للمستقبل وتتكامل فيه التراكمات المادّيّة والفكريّة وتتم معالجته في المجتمعات لخلق منتجات تتجاوز التعبير الحسّي وتتحوّل إلى عنصر تجريدي في الذاكرة بشكلٍ دائمٍ ومستمر لتجنّب عدم خلق فجوات زمانيّة أو ثقافيّة ضمن الذاكرة الجمعيّة. فالذاكرة مفهوم مناسب للتجمّعات البشريّة الصغيرة والكبيرة، تُبنَى على التواصل الذي يوضّح عقليّتها وعمقها الحضاري وتمايز ثقافتها المحلّيّة، وهذا ما يُعبّر عنه "أوليفر ساكس Oliver

[1] **"الوقت المُكثَّف" هو اقتراح من الباحث لترجمة المصلح "Thick Time" المطروح باللغة الانكليزيّة والذي لا توجد له ترجمة باللغة العربيّة حتى الآن.**

Sacks"[1] بقوله "الذاكرة مفهوم حواري، تبرز ليس فقط من خلال التجربة المباشرة لكن من اجتماع وتفاعل عدّة آراء وخبرات". [53]

4- تتعدّد المناهج التصميميّة أو الأهداف والرسائل من المشاريع ذات الصلة بالذاكرة، ويمكن تصنيفها كما يلي:

- إحياء ذاكرة مادّيّة.
- إحياء ذاكرة معنويّة (لامادّيّة) للمكان أو ذاكرة فرديّة أو جمعيّة.
- الرمزيّة أو المعلم أو التذكار لحدث ما.
- خلق منشآت تحفّز التذكّر وتُلهِم الخيال كونها تساهم في احتواء الذكريات والحفاظ على مسار الوقت وتجسيده عبر الحواس.
- الحصول على استنتاجات تفيد في الدراسات المستقبليّة كون الفراغ العمراني يعمل كنظام حيوي متكامل لوحده ومتكافل مع محيطه، متغيّرٍ باستمرار ومُنتِجٍ لمعلومات مع الوقت ومعطياً مؤشّرات تساعد على ذلك.
- التعبير عن تنوّع أو تعدّد تاريخي أو ثقافي أو حضاري عن طريق الجمع بين عناصر ومكوّنات مختلفة وإمكانيّة ربط فترات تاريخيّة مختلفة غير موجودة حاليّاً واستعادة معنويّة لها.

تحثّ كل هذه التفاعلات المتراكبة على تبادل الآراء وتنوّعها لخلق تجارب متعدّدة تغني المدن وتزيد من خبرات قاطنيها وأن تأخذ باعتبارها أثناء وضع رؤى وخطط تنمويّة أو مستقبليّة ضرورة الحفاظ على التدفّق التاريخي في حياة المدينة وعدم وضعها في سياقٍ جامدٍ، والحفاظ على المجتمع والإنسان وهويّته وتراثه وتعزيز الإحساس بالمكان والثقافة المحلّيّة والذاكرة الجمعيّة التي تقوّي المجتمع البشري في بيئته وتؤمّن على ديمومتهما معاً بسويّة أداء عالية ونوعيّة.

فالذاكرة هي ترجمة لِما تفكّر به المجتمعات، وقلّة مظاهر الانتماء تؤدّي إلى طمس ملامح المدينة وإتلاف ذاكرتها وإسقاطها من الذاكرة الجمعيّة، وهذا يدفع أحياناً إلى الاتّكاء على عالم الماضي خوفاً أو هروباً من المستقبل الذي يبدو مظلماً، [54] فلوعة الذاكرة هي غياب كامل لحاضر المدينة وهذا بحدّ ذاته يبعث على اللوعة. [55]

وبالعودة إلى العام 1925 وفي عبارة تركها المعماري "يوسف أفتيموس" منقوشة على إحدى بوابات أعماله، بناء بلديّة بيروت، تقول: "إنّ آثارنا تدلّ علينا، فانظروا بعدنا إلى الآثار".

[1] **أوليفر ساكس Oliver Sacks (1933-2015): طبيب أعصاب بريطاني ومؤرّخ في مجال العلوم له دراسات عن العقل وكيفيّة التعامل مع الإدراك والذاكرة ومؤلّفات أخرى تربط بين مفاهيم العقل والتفكير مع مواضيع متنوّعة.**

References

- **[1]** DOBRASZCZYK, P.; GALVIZ, C. L. and GARRETT, B. L. *Global Undergrounds, Exploring Cities within*. Reaktion Books, London, UK, 2016. p. 88.
- **[2]** RICH, S. C. *The Architecture of Memory* [online article]. Smithsonian Magazine (by Smithsonian Institution), USA, 06 August 2012, 05 February 2020. <https://www.smithsonianmag.com/arts-culture/the-architecture-of-memory-14396375>
- **[3] [29] [30] [31]** PALLASMAA, J. *Space, Place, Memory, and Imagination: The Temporal Dimension of Existential Space*. In: Treib, M. (editor) Spatial Recall, Memory in Architecture and Landscape. Routledge, New York and London, USA and UK, 2009, pp. 16-41. p. 17, 18, 35.
- **[4] [7] [9] [11] [15]** SOUKAH, Z. Identity between the Historical Writing and Collective Memory, Towards a Palestinian Mnemonic Model. Rou' Tarbawiyya, Vol. 27, August 2008, pp. 81-84. Arabic.
- **[5] [14] [25] [26]** STAIGER, U.; STEINER, H. and WEBBER A. *Memory Culture and the Contemporary City*. Palgrave Macmillan, London, UK, 2009. p. 1-7.
- **[6] [8]** RINGAS, D.; CHRISTOPOULOU, E. and STEFANIDAKIS, M. *Urban Memory in Space and Time*. In: Styliaras, G.; Koukopoulos, D. and Lazarinis, F. (editors) Handbook of Research on Technologies and Cultural Heritage, Applications and Environment. Information Science Reference, UK, 2010, pp. 325-340. p. 325, 326.
- **[10]** ERLL, A. *Memory in Culture*. Sara B. Young, translator. Palgrave Macmillan, London, UK, 2011. p. 18, 24.
- **[12] [16] [27] [51]** HADDAD, E. G. *The Issues of Modernist Architecture*. Dar Alfarabi, Beirut, Lebanon, 2015. p. 16-24. Arabic.
- **[13] [18] [22]** AL-NAIM, M. A. *Archaeology of Memory*. Alriyadh Newspaper, KSA, 28 May 2016, 12 January 2020. Arabic. <http://www.alriyadh.com/1506715>
- **[17] [19]** ROWE, C. and KOETTER, F. *Collage City*. The MIT Press, Cambridge, Massachusetts, USA, 1978. p. 118-121.
- **[20]** GHIRARDO, D. *Aldo Rossi and the Spirit of Architecture*. Yale University Press, New Haven, USA, 2019. p. 16-19.
- **[21] [23]** ROSSI, A. *A Scientific Autobiography*. Lawrence Venuti, translator. The MIT Press, Cambridge, Massachusetts, USA, 1981. p. 5, 62, 78.
- **[24]** DE ALBA, M. *A Methodological Approach to the Study of Urban Memory: Narratives about Mexico City*. Forum: Qualitative Social Research, Germany, Vol. 13, No. 2, May 2012. <http://www.qualitative-research.net/index.php/fqs/article/view/1854/3393>
- **[28] [54]** THUWAINI, A. *The Place and Architecture*. Arab Press Agency, 2019. p. 164, 166, 390, 391. Arabic
- **[32]** ALHUJAIRI, M. *Beirut... The Seduction of War, Renowned Buildings Have Lived the Horrors of War Inspire Writers and Artists*. Alfaisal, KSA, Vol 503-504, September / October 2018, pp. 128-133. p. 130. Arabic.
- **[33] [36]** OUTAYEK, R. *"The Yellow House"... The Open Corner onto Beirut's Memory*. Al Joumhouria, Lebanon, 04 October 2016, 20 March 2020. Arabic. <https://www.aljoumhouria.com/ar/news/328941>
- **[34]** PINKHASSOV, G. *Beirut, Center of Town*. Magnum Photos, 1996. <https://pro.magnumphotos.com/Asset/-2S5RYDYPKTHR.html>

- **[35]** KHALAF, R. *A Yellow Façade, a Beirut House and the Memories that Lie beneath*. Financial Times, UK, 19 August 2015, 22 March 2020. <https://www.ft.com/content/52360e1a-4659-11e5-af2f-4d6e0e5eda22>
- **[37] [38] [39]** Youssef Haidar Architecte DPLG (Official website) <http://www.youssefhaidar.com/projects/p118>
- **[40]** Beit Beirut – Museum and Urban Cultural Center (Official website) <https://www.beitbeirut.org>
- **[41]** NASRALLAH, J. *"Beit Beirut" Bullets on Memory Walls*. Al-Akhbar, Lebanon, 13 April 2010, 15 March 2020. Arabic. <https://www.al-akhbar.com/Literature_Arts/113950>
- **[42] [43] [44] [47] [50]** RICCI, G. *Lina Ghotmeh, the Interview: "Wouldn't be Absurd to Build a Glass Skyscraper in Beirut?"* [online article]. Domus Magazine, Italy, 11 November 2019, 12 February 2020. <www.domusweb.it/en/architecture/gallery/2019/11/10/interview-with-lina-ghotmeh-wouldnt-be-absurd-to-build-a-glass-skyscraper-in-beirut.html>
- **[45] [46] [48]** FAWAZ, M. and ARAMOUNY, C. *Stone Garden, the Mixed-Use Building in Beirut's Harbour District* [online article]. Domus Magazine, Italy, 06 April 2020, 18 April 2020. <https://www.domusweb.it/en/architecture/gallery/2020/04/06/stone-garden-the-mixed-use-building-in-beiruts-harbour-district.html>
- **[49]** Lina Ghotmeh Architecture (Official website) <https://www.linaghotmeh.com/en/stone-garden-el-khoury-foundation.html>
- **[52]** TILL, J. *Thick Time: Architecture and the Traces of Time*, In: Iain Borden and Jane Rendell (editors) Intersections, Architectural Histories and Critical Theories. Routledge, London, UK, 2000, pp. 283-295. p. 291.
- **[53]** SACKS, O. *Speak, Memory*. The New York Review of Books, USA, Vol. 60, No. 3, 21 February 2013.
- **[55]** AL-NAIM, M. A. *Memory of the City: the Agony of Absence and the Pleasure of Presence*. Alriyadh Newspaper, KSA, Issue 14551, 26 April 2008, 30 April 2020. Arabic. <http://www.alriyadh.com/337608>